حِبر أبيَض
WHITE INK

محمد الساعد

الملك عبد العزيز.. قائد معركة التحرير ضد المحتل العثماني

حــرص العثمانيون على البقاء في وســط الجزيرة العربية، وأسســوا الحاميات التركية في البلدات النجدية، ودعموها بالرجال والسلاح لأسباب عديدة من أهمها:

أولًا: بقيت نجد مناوئة للاحتلال العثماني ولم ترضخ منذ العام 1818م، غداة سقوط الدرعية حتى خروج الملك عبد العزيز عام 1902م لاســتعادة ملك آبائه، وكلما ســنحت فرصة اجتمع الأهالي حول أئمتهم من آل سعود.

ثانيًا: حرص الأتراك على البقاء قريبًا من عاصمة الســعوديين – الدرعيــة والرياض- كونها مراكز تجمع السعوديين، وولادة معارك التحرير ضدهم.

ثالثًا: بناء قواعد متقدمة للمحتل يدير منها عملياته ضد السعوديين ويتجسس عليهم ويستنزفهم.

رابعًا: عدم ثقة المحتل العثماني في أدواته المحلية التي لم تنحز للعثماني إلا طمعًا في مال أو سلطة، ولا تستطيع تحقيق ولاءات على الأرض بدون القوة القمعية التركية.

خامسًــا: قاعدة تصدي ضد الســعوديون خوفًا من تحريرهم، ليس نجد فقط بل تحرير المدينة المنورة القريبة جدًا من القصيم وثاني أهم المدن المقدسة بعد مكة المكرمة.

لقــد حرص المحتل العثماني، على أن تبقى يده العســكرية في منطقة وســط بين الدرعية والرياض من جهة، والحجاز من جهة أخرى؛ خوفًا من عودة المدن المقدســة إلى حضنها الســعودي، فالحرمان الشريفان هما من يحققان للمحتل العثماني شرعيته – المزوّرة- على العالم الإسلامي.

ولذلــك كانت القصيم واحدة من الأقاليم المهمة، التي رسَــخ فيها العثماني احتلاله وكثّف حامياته التركية وجعلها في تأهب دائم.

عندما ارتجّت الآســتانة من جديد كان الملك عبد العزيز في عام 1904، قد بدأ للتو في معارك التحريــر من الرياض إلى المدن والبلدات المحيطة بها، لاســتعادة مُلك آبائه وأجداده من آل ســعود الكرام، وأخذت الأخبار تنتشــر ســريعًا في نجد والأقاليم المجاورة، حتى لامست القصيم بما فيها من قواعد وحاميات عثمانية متقدمة، لترتج الآستانة من جديد خوفًا من دولة سعودية ثالثة جديدة تستعيد بلادهــا ويلتف حولها مواطنوها، ومن ثم تُشــكّل خطــرًا على موقع العثمانييــن المهتز أصلا، والذي لايحظى بأي حاضن شعبي في الجزيرة العربية ولا في العالم الإسلامي.

وســارعت الدولة العثمانية بمد عاملها في شــمال نجد، بعدد كبير مــن القوات النظامية، والذين يتشــكّلون عادة من جنود نظاميين أتــراك ومرتزقة أغلبهم من الشــام والعراق، يعملون في الجيش العثماني، تم تزويدهم بالأسلحة الحديثة والمدافع إضافة للمؤن والجمال والخيول.

وقدّر عدد جنود العثمانيين الذين ســارعوا بإرسالهم بنحو ألف وخمسمائة، وتُشير المصادر التاريخيــة إلى أن عامل العثمانيين قام بمصادرة ما وجد من إبــل العقيلات الذين كانوا يجوبون البلاد للتجارة بين العراق والشــام ومصر وشــبه الجزيرة العربية، مُحملًا عليها قســمًا كبيرًا من الأطعمة والمؤن والأســلحة، التي وصلته ســريعًا من ولاية العراق العثمانية في طريقه إلى القصيم، للتصدي للجيش السعودي بقيادة الملك عبد العزيز أو على الأقل إخراجه من القصيم، ووصل إلى قرب البكيرية مُشكلًا قاعدة متقدمة للحرب ضد السعوديين.

دهاء الملك وغرور العثماني:

فــي المقابــل كان الملك عبــد العزيز قد وصل إلى أواســط القصيم، حيــث تتجمّع قوات العثمانيين وعمالها في نجد، وعَلِم بدهائه وعبقريته السياســية والعسكرية، أن هذه المعركة مصيرية وحاســمة في العلاقة مع الســلطنة العثمانية، وتجبُّرها وقيادتها للجيوش ضد أي تحرك ســعودي، خاصَّة كونها أول تماس مباشــر معهم منذ عودته من الكويت واســتعادته ملــك آبائه، فأعلن النفير واســتنهض النجديين والقبائل الموالية لوطنها ودينها وأئمة آل ســعود للمعركــة المصيرية، التي حددتها مناطق نــزول القوات في البكيرية، وبلغــت القوات الموالية للمك عبــد العزيز عدة آلاف من المحاربين الأقوياء وخرج بهم من بريدة نازلًا البكيرية في مواجهة خصومه، وكان ذلك في يونيه1904م.

خطة الملك عبد العزيز العسكرية:

قسّــم الملك عبدالعزيز جيشه إلى قسمَين لإلهاء الخصم وتشتيت قواته، القسم الأول كان بقيادته ويضم أهل العارض وجنوبي القصيم، وخصصه لملاقاة جموع المقاتلين المنعزلين والموالين للجيش العثماني وابن رشــيد عاملهم في نجد، والقسم الثاني يضم المقاتلين من أهل القصيم ومن تبعهم من قبائل مطير والذين أوكلهم بملاقاة الجيش العثماني النظامي.

ونشب القتال بين الطرفَين، ورجحت كفة العثمانيين في بداية المعركة، مستفيدين من قوة نيران مدافعهم، خاصَّة أنهم ركزوا قوتها ضد الجناح الذي يقوده الملك عبدالعزيز لأن الناس يجتمعون حوله، ذلك الأمر ألحق به خسائر بشرية وأرهق قواته، إضافة إلى تعرضه شخصيًا لشظية أدت إلى جروح في يده اليسرى، مما اضطر الملك إلى التراجع تكتيكيًّا باتجاه بلدة المذنب.

وفي الوقت نفســه واصل الجناح الثاني بقيادة أهالي القصيم قتاله ضد الجنود النظاميين المحاربين لدى العثمانيين، محققين تقدمًا ضدهم، وأدى ذلك إلى أســر عددٍ من الجنود، وغنموا بعض المدافع وعادوا إلى البكيرية مع الليل، وعلى الرغم من ذلك فإن قوات ابن رشيد ظلت متماسكة ثابتة.

لم تكن المعركة قد حُســمت، والخسائر في الطرفَين كبيرة، فقد استشهد من قوات الملك عبد العزيز ما يقارب 900 رجل منهم أربعة من آل سعود، وفي المقابل قُتل من جيش الأتراك نحو ألف جندي بينهم أربعة ضباط كبار.

وفي اليوم الثانــي للمعركة، واصل الملك عبد العزيز مع أتباعــه ملاحقة العثمانيين وأعاد تمركزه في القصيــم ووصل إلى عنيزة، ليتوافد عليه أبناء الجزيرة الذيــن التفوا من جديد حوله ليقود التحرر مــن العثمانيين الغزاة، ووصل عدد قواته الجديدة في عدة أيام إلى اثني عشــر ألف مقاتل، في وقت قصير ورقم كبير بمقاييس تلك الأيام.

كان فلول العثمانيين وحلفاؤهم يحاولون تجميع ما بقي من قواتهم، والتقاط أنفاسهم بعد المعارك الضارية، وســارت تلك القوات المشــتّتة إلى عدة بلدات، منها رياض الخَبْراء التي أبى أهلها أن يعلنوا الطاعــة، فأمر قادة الجيش العثمانــي بقطع النخيل وقذف البلدة بالمدافــع، ويبدو أن إعادة التمركز تلك كانت هي البداية للمعركة النهائية التي ستفتح نجد بكاملها أمام الملك عبد العزيز.

عاد الملك – الإمام- إلى البكيرية للســيطرة عليها، إلا أن ابن رشــيد ســارع إلى إرسال سرية اصطدمت بخيّالة الســعوديين فانهزمت، ودخــل الإمام عبد العزيز البكيرية واســتولى على الحامية العثمانية فيها، وغنم السلاح والمدافع التي خزّنها العثمانيون فيها.

معركة الشنانة

بعد ذلك انســحبت القوات العثمانية إلى الشــنانة، متخذين منها معســكرًا، وفي المقابل تمركــزت قوات الملك عبدالعزيــز في الرس، وتصف المصادر التاريخية معركــة البكيرية بالمهمة في طريق تحرير القصيم لكنها لم تكن حاســمة، فقد خســر الملك عبدالعزيز بن ســعود كثيرًا من جنده ومعداته، ولكنه بخبرته وحســن قيادته اســتطاع أن يعوّض هذا النقص، وجمع حوالي اثني عشر آلف مقاتل خلال عشرة أيام.

وأصر الملك عبد العزيز على البقاء والمواجهة، وهي سياســة وحنكة اســتمرت معه طوال تاريــخ توحيده لبلاده، وفي هذه المعركــة الفاصلة بقي الملك في مواجهة أعدائه مدة شــهرَين، حتى ضاقــت عليهم الأرض ونقصت إمداداتهــم، ولم يقطع تلك المدة إلا المناوشــات الخفيفة التي جرت بينهما من دون قتال حاســم، مما أصاب المحاربيــن العثمانيين بالتعب والوهن وتناقصت الإمدادات والإبل وتفرقت جموع البادية ولم يبق مع العثمانيين غير الجنود النظاميين.

وقرر قادة الجيش العثماني، وعُمّالُهُــم وحلفاؤهم الرحيل باتجاه قصر ابن عقيّل للتحصن فيــه، فقد كان ملاذهم الأخيــر، وقبل أن يهجموا على البلدة والقصر فــي الصباح، كانت عيون الملك عبدالعزيز قــد أبلغته، وهذا في حقيقته مــن أدوات الحرب المهمة، التي وظفّهــا الملك الداهية في اســتعادة بلاده وهزيمة أعدائه، وفي الصباح فوجئ العثمانيون أن الملك قد سبقهم إلى داخله وثبت فيــه بتعاون الأهالي، ليصب جيش العثمانيين نيــران مدافعهم على القصر ويخرج لهم جيش الملك عبــد العزيز، ويندلع قتال هو الأقوى من نوعه طوال تاريــخ مواجهات القصيم، انهزمت على أثره قوات الترك النظامية، وفرّوا هاربين تاركين وراءهم غنائم كثيرة من الذخائر والســلاح والأموال، وظلت قوات ابن ســعود تجمعها طيلة عشرة أيام منها صناديق الذهب العثماني التي أرسلوها لشراء الذمم وقتال الملك عبد العزيز.

وبدأت ملامح الدولة الســعودية الثالثة تظهر للعيان، وتتشــكل بأقاليمها المتعددة، فبعد العارض ها هي القصيم تتوحد تحت راية الملك عبد العزيز، لقد كان مفتاح انتصار الملك عبد العزيز هو الصبــر والنَّفَــس الطويل، وإنهاك الخصم بالمناوشــات، وإقنــاع العثمانييــن وحلفائهم بأن جيش الســعوديين لا يســتطيع القيام بأكثر من مناوشــات قصيرة وســريعة ليفُاجَأوا بأنهم أشرس وأكثر صمودًا، بالرغم من قلة الإمكانات العسكرية.

المراجع

- معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد - عبد الله الصالح العثيمين

- بعثة إلى نجد 1917 - 1918 - هاري سانت جون فيلبي.